إشكاليات شعرية بين الأمس واليوم

تأليف : نشأت المصرى

الشعر.. وما أدراك ما الشعر.. هذا التكوين الفن اللفظى الإيقاعى الذى يطلبه الإنسان من الرضاعة إلى الشيخوخة، وبه يسعد، وله يطرب. هكذا يكون الحال مع الشعر الجميل، فإذا خلا الشعر من الجمال تخلى عنه مسماه.

لا نقول البداية من شعر الفراعنة، فالبداية ولدت مع خلق الإنسان بين أحضان طبيعة تموج بالإيقاع والثنائيات اللانهائية، ومن صداها فى الشعر ذلك التشطير فى البيت والقافية. فالشعر شعر وإن وقع الاختلاف فى لهجته أو لغته أونمطه.

وما قيل فى فن الشعر قديمًا قد نقبل بعضه – وهو ينسحب على شعر العامية كما ينصب على الفصحى – وما قيل فيه إنه نص الوجود، وهو فضاء المتناقضات. وفى كتاب "فن الشعر" للرومانى "هوراس فلاكوس" (٦٥ق.م – ٨ ق.م) تحدث فى قضية الشعر القديم والحديث، وهى قضية دائمة الاشتعال حتى الآن.

لم يكن مقنعًا أن تظل وظيفة الشعر هى التعليم فقط، فانضم "هوراس" إلى مفهوم "أرسطو" للشعر – الذى خالف به أستاذه "أفلاطون" – مؤكدًا أن الشعر أقرب إلى روح الواقع من التاريخ، فهو تمثيل للمثل الأعلى، وهو مقدم على الفلسفة، حتى أن "هوراس" أسند النبوة إلى الشعراء.

ويقول "على محمود طه" فى "ميلاد شاعر":

هبط الأرض كالشعاع السنى
بعصا ساحر وقلب نبى

دار الكتب والوثائق القومية

وما يعنينا هو خلاصة رأى "هوراس" الجامع وهو أن للشعر ثلاث قيم : قيمة عرفانية، وقيمة جمالية، وقيمة جمالية عرفانية، وهو رأى يطل برأسه ليكون بيننا الآن بعد أكثر من ألفى عام. وقد أضاف إليه النقاد من بعد تحديدات مضافة كقول د. محمد مندور "إن أجود الشعر أكثره سذاجة"؛ تأكيدًا على رفض الصنعة فى الشعر، وهذا يتعارض مع المفهوم الذى قدمه لنا "قدامة بن جعفر" (٢٦٥ – ٣٣٧هـ) فى كتابة الشهير "نقد الشعر"، ورد فيه أن الشعر لفظ موزون مقفى يدل على معنى، ثم يسرد مواصفات الألفاظ الشعرية، وحين ينقد عيوب الشعر يركز على

المعانى، والأوزان، والقوافى، والأسلوب، ولا يتصدى لتفاعل النصوص مع مناخها بالقدر الكافى.

ونتطرق من هذه الإضاءات البعيدة إلى حال شعر الأطفال الفصيح والعامى فى القرن الماضى، ولن نطيل الحديث حول ما أثير من جدل بخصوص ريادة أمير الشعراء "أحمد شوقى" فى هذا المجال، لكن من الثابت أن شعر "أحمد شوقى" للطفل كان أطول عمرًا، وأوسع انتشارًا لأسباب شتى؛ مما أدى إلى اعتباره رائدًا لشعر الطفل – وإن سبقته محاولات متفاوتة فى المستوى والتأثير بدءًا من عهد "محمد على" حيث كتابات الشعر التعليمى، ثم برز دور "محمد عثمان جلال"، و"شوقى"، و"محمد الهراوى"، و"كامل الكيلانى" وآخرين. فقد اضطلع "عثمان جلال" بترجمة حكايات "لافونتين" التى نبعت من "كليلة ودمنة"، و خرافات "أيسوب" بشئ من التصرف الحميد فى كتابة " العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ" (عام ١٨٤٨م)، ثم تبعه "شوقى" بنشر حكاياته للأطفال – المأخوذة من "لافونتين" و"التراث" (عام ١٨٩٨م) دون إشارة إلى العيون اليواقظ، وتلاه عدد من الإسهامات الجادة "لكامل الكيلانى"، و"الهراوى"، و"إبراهيم العرب" فى فترات متقاربة.

وفى كتابة دراسات فى الشعر العربى كتب الدكتور "شوقى ضيف" عن جوهر الشعر "أنه ليس فى شكله الخارجى من وزن، وقافية، وألفاظ، وموضوعات خاصة، وإنما هو فى التجربة الروحية التى يمر بها الشاعر، ولا بأس أن تكتب هذه التجربة فى لغتها الحقيقية أو قل فى لغة بسيطة كتلك التى يتفاهم بها أفراد الشعب".

وهذه المقولة تتماس فى أكثر من نقطة مع شعر الطفل فى كينونته الحالية، فلم يعد كافيًا الالتزام بالشكل الخارجى، وأصبح متاحًا التجديد فى اللغة والمفردات الشعرية التى توسعت لتشمل ألفاظ الحياة اليومية، ولكن هذا التمدد اللفظى يجب أن يكون حذرًا حتى لا يفقد الشعر خصوصيته بالإسراف فى استخدام لغة الحياة اليومية بعيدًاعن روح الشعر. ومن الملاحظ تخلف العديد من شعراء العامية والفصحى عن اللحاق بهذا المنظور الجديد، فلا تزال العديد من القصائد تسرف فى أغلال النمط الشعرى القديم شكلاً ومضمونًا، وهذا ما نراه فى أشعار "أحمد نجيب" على سبيل المثال، وما ينشر فى عدد من مجلات الأطفال مثل مجلة "الفردوس".

وليس هذا الجمود حكرًاعلى مجلة "الفردوس"، وإنما نرى أعراض ذلك فى معظم المجلات العربية على تباين المستوى الفنى والأدبى بين مجلة وأخرى. لكننا كذلك نلاحظ ألوانًا أخرى أقرب إلى روح الشعر وجمالياته فيما تقدمه مجلة "قطر الندى" فى العقد الأخير من شعر

الفصحى والعامية، ومجلات أخرى مثل "ماجد"، و"العربى الصغير"، لكننا لا نلمس تطورًا ما أو تنافسًا بين الأعمال المنشورة من عام إلى عام؛ ويعود ذلك – فى يقينى – إلى أن الشعراء لا يبذلون جهدًا فى تطوير ما يقدمونه مقارنة بما يتم فى شعر الكبار، ويرجع ذلك إلى أمور منها : أن معظم شعراء الطفل شعراء عابرون، يفدون إلى حقل الطفل بشكل مؤقت، وكأننا بصدد استراحة فى طريق شعر الكبار وأجود شعر الطفل المقدم هو عزف جديد على أوتار قديمة. ففى نصوص كثيرة نلمس الإنضواء تحت مظلة الموضوعات القديمة وإن تحسنت الصياغة، مع محاولات للإفلات من أسر التقريرية، والوعظ، والحكم الجافة، التى يضيق بها الطفل فى النهاية. وتنجو من هذه العثرات أعمال قليلة فى مقدمتها إبداعات للشعراء "أحمد سويلم"، و"شوقى حجاب"، و"عبده الزراع"، و"محمد كشيك"، و"طاهر البرمبالى"، و"أمل جمال". وقد حاولت أن أحقق ما أطالب به غيرى فى ديوانى قبل الأخير "أجمل الأيام" (٢٠٠٦م) وللقارئ الرأى الفصل.

وفى أعداد من مجلة "ماجد" نلتقى بأشعار من شعر التفعيلة، أما رياح قصيدة النثر فلم تصل بعد إلى شعر الطفل لحسن الحظ لأن الاحتفاظ بالوزن والقافية ضرورة دائمة لشعر الطفل.

لكننا نواجه هذا النص الشعرى النثرى – إضطرارًا– فى القصائد المترجمة، وكان من المألوف أن يتم ترجمة الشعر إلى نص موزون مقفى، لكن المترجمين الجدد لم يفعلوا ذلك، ربما لعدم قدرة المترجم على الصياغة الشعرية، وسنظل نطمح إلى رؤية النص المترجم شعرًا. لكننا بالتأكيد نرحب بترجمة المزيد من الشعر الأجنبى على أى صورة من الصور، لنقرأ هذا النص بعنوان " لا تدعينى يا أمى " للشاعر "فانسان بيرنيس" – ترجمة عاطف عبد الحميد ـ وهو شاعر متميز يقول :

لا تدعينى يا أمى وحيدًا / هل أنت تخافين من الذئب / لا يا أمى / فالذئب هناك فى الغابة / بين الأشجار / .... إلخ .

وهذه القصيدة – وما يماثلها – تعكس مشكلة أخرى وهى أن اختيار النماذج المترجمة يدور معظمه فى دائرة النماذج التقليدية رغم وجود قصائد جديدة مدهشة تحتاج إلى حسن الإنتقاء .

وثمة محاولات أخرى لترجمة دواوين باهرة قدمها الأدباء "محمد عبد الحافظ ناصف"، و"محمد رجب"، و"إبتهال سالم"، و"إيزابيلا كمال". ومن اللافت أنه لا يوجد ترجمة إلى العامية، فهل يعود ذلك إلى عدم اطلاع شعراء العامية على الشعر الأجنبى؟!!

عمومًا. نحن نبحث هنا عن الإيقاع الذى هو بعض من فطرة الطفل وهو الضمانة الباقية لبقاء شعر الطفل حتى لو تراجع دور الشعر وأثره لدى الكبار. نعم، سيبقى شعر الطفل قائمًا ومزدهرًا إلى النهاية لأنه لا يرتبط – لدى الطفل – بخلفية ثقافية معينة أو متغيرات أدبية وما إلى ذلك، بل ينبع ويلبى نداء الفطرة قبل الدخول إلى تفاصيل الحياة. لابد إذن من شعر جيد نقدمه لأطفالنا، فمن أخطر أمراض نقص شعر الطفل – بشقيه – هو محدودية الخيال، والإنسان كما قال "شوبنهور" : إرادة وتخيل ، وحين نحذف التخيل أو نلغيه، فإننا نسقط فى عقم المستقبل .

إن العديد من شعراء الطفل المتخصصين لا يطلعون على حركة شعر الأطفال فى العالم، ولا يتعمقون فى قراءة التراث، وهذا يؤدى إلى تقلص فرص التطور والتجديد.

من الظواهر السلبية غياب النقاد عن شعر الفصحى للطفل، وتتفاقم المشكلة فى شعر العامية حيث الغياب الكلى، وربما من أسباب ذلك شخصنة النقد. وفى ذلك يقول ايليوت "إن النقد الأمين يجب أن يوجه للشعر لا للشاعر". والغريب أن ثمة انطباع لدى العديد من النقاد بالمكانة الأقل للشعر العامى قياسًا بالفصحى . يقول د. "شوقى ضيف" فى كتابة السابق : "الجميع يجرون على سنن مألوفة فإذا حادوا عنها كان شعرهم عاميًا – ولم يكن عربيًا ـ وكان زجلاً أو غير زجل مما لا يرى فيه النقاد أى جمال ولا أى روعة".

ومن تلك السطور ندرك أمرين :

أولاً : أن الحياد عن معجم الألفاظ الشعرية متاح ومتوقع ومسموح به بدرجة أكبر فى شعر العامية بما يعطيه كفاءة أكبر وقدره أروع فى الكتابة للطفل والاقتراب من عالمة.

ثانيًا : أن شعر العامية فى درجة أقل من الجمال والروعة، وهو فهم عكسى لما يجب أن يكون حيث أن الانفلات من القيود اللفظية الشعرية والعروضية وصل إلى حد يقودنا إلى قدر أكبر من الحرية فى التعبير واتساع الأفق، مما يعطى فرصة أكبر لتحقيق درجات أعلى من الجمال.

إن قيود معجم شعر الفصحى تخف كثيرًا إزاء شعر العامية لنقرأ هذا المقتطف من قصيدة الإحسان لـــ "أحمد زرزور".

حينما تمنح يومًا / بسمة للحائرين

حينما تمسح حزنًا / عن وجوه البائسين

هكذا يـرضـى الإلـه / وكـذا تصفـو الحيـاة

ومع جمال النص ودفئه وبساطته، نستطيع أن نرى كلمات بعينها تتكرر فى القاموس الشعرى العام.

ونبادر إلى نص عامى من ديوان فتافيت السكر للشاعر طاهر البرنبالى من قصيدة سعاد.

لـو فستـانك بكولـه / هنـلعب تـانى أولـى

ونرجـع اللـى راح / يا نسـمة الطفـولة

هنقسـم حتـى فـوله / ونـزقزق للصبـاح

وفى هذا المقطع، وبقية قصائد الديوان، ودواوين أخرى لشعراء مثل "محمد أبوزيد"، و"رجب الصاوى"، و"مجدى عبدالرحيم" وغيرهم. يتسع القاموس الشعرى إلى حد كبير مقارنة بحالة الفصحى.

ونحن ننتظر أن يتحمس أحد الدراسين أو النقاد، ويسجل المفردات الشائعة فى شعر العامية للأطفال ومقارنتها بمفردات الفصحى إجلاءً للحقيقة. ويطل سؤال بديهى وهو: ألا يؤدى وجود النصوص العامية إلى مشكلة فى التلقى للطفل ما بين دولة عربية وأخرى؟

شعر العامية والفصحى لمحات وتطبيقات

إنتقاء الكلمات :

فى غياب النقد الجاد لما يُكتب للأطفال تظل كافة المفاهيم القديمة قائمة دون تطوير محسوس، وهذا يؤثر سلبًا على ذوق الطفل، إن لم يتسبب فى نفوره من الشعر وإنفصاله عنه، ولدينا مثال للنصوص المدرسية. ولعل شاعر العامية هو الأقدر على الوصول إلى قلب الطفل وعقله؛ لأنه لا يستخدم مفردات صعبة تحتاج إلى شرح كما هو الحال فى شعر الفصحى الذى ينطوى أحيانًا على كلمات غير مألوفة للطفل تتطلب شرحًا، ويبرر البعض الإبقاء على بعض الكلمات البعيدة عن إدراك الطفل بحجة الارتفاع بمستوى اللغة لدى الطفل كما يقرر ذلك الشاعر السورى "سليمان العيسى" – وغيره – ولا أظن بحال أن هذه المهمة من وظائف القصيدة الرئيسية، لأن تلك الكلمات تهدد بانفصال الطفل عن النص وانصرافه عنه.

استسهال الكتابة للطفل :

من الأعراض المشتركة فى شعر الفصحى والعامية للأطفال أن القصائد فى معظمها تبدأ ولا تنتهى، ينسى الشاعر أن القصيدة لم تعد هذه الثرثرة الموزونة دون تكوين درامى للقصيدة ونهاية مكملة، وإذا كان بعض الشعراء يستسهلون الكتابة للطفل لأنهم فى مأمن من النقد فهم واهمون لأن ذائقة الطفل لم تعد تكتفى بالتلقى. بل أن هناك من الذين كتبوا شعرًا للكبار لم يقدموا على كتابة شعر الأطفال حين قرروا خوض تجربة الإبداع للطفل، ومن أبرزهم الكاتب الأشهر "هانز أندرسون"، والشاعر المصرى الكبير "محمد عفيفى مطر" فمن المعروف أن "أندرسون" بدأ مشواره الأدبى بكتابة المسرحية والشعر للكبار ولم يلق النجاح المأمول، وحين انعطف إلى الكتابة للطفل اقتصر على كتابة القصة، إلا أن روح الشاعر تطل برأسها من ثنايا قصصه فتترك أثرًا جميلاً فى نفس القارئ.

أما الشاعر "عفيفى مطر" حين اتجه إلى الكتابة للأطفال آثر النثر والقصة ونشر مجموعته القصصية "مسامرة الأولاد كى لا يناموا" (١٩٩٨م)، وتلتها أعمال أخرى. وقد شاعت فى هذه القصص بالضرورة أطياف من الشعر فى الأسلوب فيرتفع – دون قصد – عن إلمام الطفل باللغة، وأذكر قوله لى – وكأنه يحلم أو يعترف – ربما كانت كتاباتى للطفل هى أهم ما تحرك قلمى به وهى المؤهلة للبقاء.

أهداف الكتابة :

من التعسف وإضاعة الوقت أن نجتزئ بعض الأهداف وندافع عنها، وقد اختلف النقاد والشعراء فى إسباغ صفة الشعر على القصائد التعليمية، واعتبروها خارجة عن عائلة الشعر. ومن الميسور أن نجد قصائد تعليمية متناثرة لدى العديد من الشعراء خاصة فيما ينشر فى المجلات الدينية والحكومية، ولا تخطئ العين قلة قصائد العامية التعليمية.

ولابد أن نفرق بين لونين من الشعر التعليمى – إن جاز وصفه بالشعر – اللون الأول هو النظم الحرفى المباشر للمعلومة الذى يقدم الفكرة وقد خلت من المشاعر والتأمل واللمسة الفنية، وإن التزم الوزن والقافية، وهذا اللون لا يحسب للشعر والشاعر، ولا ينبغى أن ندحضه أو ندينه، فهو يقوم بدور فى تثبيت المعلومة، وهو يندرج تحت الأساليب المساعدة لشرح المعلومة، وتتساوى الفصحى والعامية فى أداء هذا الدور غير الشعرى.

أما اللون الثانى فهو المعلومات التى تقدم فى قالب شعرى تتوفر فيه سمات من الخيال وربما

الفكاهة والصور والبناء الدرامى، فنكون بإزاء قصيدة تجمع بين المعلومة والفن بحيث لا تجور المعلومة على ثوبها الشعرى. من ذلك قصائد من الديوان البديع" أحلامى الجميلة" للشاعر"أحمد سويلم"، وبعض قصائد من ديوان "الأمل .. تيكا تيكا .. تك" للشاعر"شوقى حجاب". والديوان المرح "أراجوز فنان" للشاعر "عبده الزراع"، وديوان "قالت الأشياء لى" للشاعر "سعيد الوكيل" .

ويتنافس شعر العامية مع شعر الفصحى فى المضمون الأخلاقى والتربوى والدينى، ويقول الأديب والفنان الهندى العظيم "طاغور" : "إن أسمى ألوان التربية هى التى لا تقدم لنا المعلومات فحسب بل تجعل أيضًا حياتنا متآلفة مع وجودنا بأكمله". وفى هذا دعوة للشاعر إلى أن يتجاوز حد المعلومة أو القيمة إلى روح الشعر ودمج الفكرة بالحياة والخيال، مبينًا أهمية الأدب والفن فى صياغة الحياة.

وثمة كلمة يعتنقها البعض مؤداها أن العمل الأدبى الرائع يصلح للصغار والكبار على السواء دون تحديد لطبيعته الفصحى أو العامية، وإننى أنحاز إلى هذا الرأى فيما يكتب للمرحلة الأخيرة للطفولة بعد التغير النوعى فى المعرفة لدى الأطفال فى غمار هذا الشلال المعلوماتى عبر الوسائط المختلفة .. ولم يعد مقبولاً – فى ظنى – ذلك التقسيم التقليدى المتفق عليه الذى يصل بعمر الطفل – كقارئ – إلى سن الثمانية عشر، وقد يتفق القارئ معى أن طفل العاشرة منذ عشر سنوات يوازى فى المعرفة والخبرة الحياتية طفل الثامنة اليوم وأن الأطفال بعد سن الرابعة عشرة قادرون على قراءة أعمال الكبار دون صعوبات تذكر، وهذا يهدد ما يسمى بأدب الناشئة بالإختفاء والذوبان فيما قبله وبعده.

ونصل إلى نقطة فاصلة تؤرقنى، وقد واجهتنى بقوة عند الاشتراك فى التحكيم فى بعض المسابقات الخاصة بأدب الطفل، وإبداء الرأى فيما يقدم لدور النشر من أعمال. والسؤال هو : كيف نتعامل مع عمل شعرى جيد من شعر العامية لسن العاشرة وما قبلها مقدم للنشر ليكون بين يدى طفل لم تترسخ لديه قواعد الكتابة والنحو فى لغته الفصحى ؟؟

ورغم محبتى وإعجابى واستمتاعى بشعر العامية، بل والكتابة به أحيانًا إلا إننى ضد تقديم أى كتاب بالعامية للطفل قبل سن العاشرة حتى لا يحدث الخلط والتصدع والانفصام فى فهمه للغة والكتابة بها، وفى الوقت نفسه أقول مرحبًا بهذا الإبداع العامى الجميل إذا كان فى صورة C.D أو يقدم للطفل من خلال البرامج المرئية والمسموعة، وبالتالى أناشد الأدباء ودور النشر ألا يسمحوا بالنشر الورقى للإبداعات العامية التى تستهدف تلاميذ المرحلة الإبتدائية.

وأخيرًا :

أثناء الثورات ينتفض الشعر – بلونيه – معبرًا ومحفزًا للثورة والثوار، ويزرع نبتة الحرية والأمل؛ فيطرب الكبار والصغار لأغنيات بطعم الثورة معظمها بالعامية، ودارت المطابع بجمرات الأشعار وزهراتها للكبار، بينما المطابع لاتزال على جوعها لشعر الأطفال الثورى فى ظل ثورة منفردة بمشاركة الطفل فيها بالالتحام الذى يرقى إلى مباهج الشهادة، أو بتواتر المشاهدة؛ لعل القائمين على النشر بكافة الوسائل يتيحون الفرصة لشعر الأطفال ليكون سلاحًا لأبناء الغد يبتر تاريخًا مظلمًا وظالمًا.

دار الكتب والوثائق القومية